الفواصل الساردة والنقاط الواصفة
(حوارية الفنون و تداخل الأجناس الأدبية في مسرحية " جميلة بوحيرد ")
للأديب السوري الراحل " عبد الوهاب حقي "

الدكتورة : فاطمة نصير
جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة / الجزائر

"أعطني مسرحا أعطك شعباً مثقفاً"أو"أعطني مسرحا أعطك شعبا عظيما "،تعدّدت ترجمات المقولة، وحمولات المعنى تشي بأهمية المسرح في بلورة تفكير الشعوب وتثقيفهم وتفجير إشكالاتهم المتعددة على الركح .

تنسب هذه المقولة لستان سلافسكي على الأرجح ، لا يهمّ نسبتها له أو لغيره ، بقدر ما هو مهمّ إنصاف هذه المقولة والتفاتها للفن المسرحي ،وإعلاء قيمته بين فنون مختلفة ومتعدّدة .

المسرح هو الفنّ الذي يحلو للكثير من النّقاد نعته بأبي الفنون ، نظراً لارتباطه بأعتى وأقوى الحضارات القديمة التي تعود إلى ما قبل الميلاد (الحضارة الإغريقية وبعدها الرومانية).

لم يكن الفنّ المسرحي منذ القدم منغلقاً على ذاته ، بل كان منفتحاً على الفنون الأخرى ، تارة باستضافتها ، وتارة بمحاورتها ، وتارة أخرى بالتداخل والتشابك معها دون أن يلغي خصائصه الفارقة كفن قائم بذاته وله أدواته المستقلّة.

ضمن هذه المداخلة المعنونة بـ " الفواصل الساردة والنقاط الواصفة (حوارية الفنون و وتداخل الأجناس الأدبية في مسرحية " جميلة بوحيرد") للأديب السوري الراحل " عبد الوهاب حقي"، سيتمّ تسليط حزمة ضوئية على هذه المسرحية المهمّة بما تحمله من مرجعية تاريخية وثورية، وفي ذات الوقت حواريتها وتداخل نصّها بالفنون المجاورة والأجناس الأدبية المتاخمة .

تمهيد :

المسرح منذ ظهوره في الحضارة الإغريقية والرومانية، حتى انتقاله للبيئة العربية ، استوعب إشكالات الذات البشرية، وتأرجحها بين الكوميدي والتراجيدي، ومن ثمّة كان فضاء مجسّدا لقضايا عديدة، تتنازعها التوجّهات، من اجتماعية إلى ثقافية وتربوية وفنية وسياسية وأخرى تاريخية.

هذا النّمط الأخير، المسرح المعني بالحدث التاريخي هو ما ستستمدّ منه المداخلة فروعها وأغصانها.

وبالاستناد لمسرحية "جميلة بوحيرد " للأديب السوري الراحل عبد الهادي حقي، تكون هذه المداخلة، قد حدّدت بدءا، النمط المسرحي الذي سيكون مدار الكلام، وهو المسرح التاريخي، المستلهم من تاريخ النضال الثوري الجزائري، والذي كان للمرأة فيها حضور ساطع.

جميلة بوحيرد ، رمز المرأة الجزائرية المناضلة التي استحالت رمزا شعرياً وأدبيا ، بعد أن ثبت اسمها في سجلات التاريخ، و كتب عنها شعراء المشرق والمغرب ، حتّى باتت أشهر المناضلات على الإطلاق .

وها التركيز سيكون في بؤرة " نظرية العلاقة بين الفنون"، والتي يعدّ الناقد الألماني لسينج lessing، من أبرز روّادها ، وهي نظرية تقوم في الأساس على تناول الفنون المتعددة باعتبار كلّ فنّ له أدواته ووسائله المختلفة ، التي من شأنها أن تحدث إضافة للفن الآخر، وقد جاء بعد نقاد آخرون أمثال الناقد الإيطالي كروشيه Croci الذي أضاف وعدل في النظرية[1]، ممّا جعلها مبحثاً مهمّا في الدراسات الأدبية والنقدية والفنية.

01ـ جميلة بوحيرد وانتماؤها ونضالها:

جميلة بوحيرد من مواليد 1935 بالعاصمة الجزائر، من أسرة وطنية، ورثت حب الوطن أب عن جد، حتى سرى في عروقها وجيناتها.

كان بعض أفراد أسرتها منخرطون في النضال من أجل تحرير البلاد، لم يكن التحاق جميلة بوحيرد، لجبهة التحرير الوطني بالأمر الذي كلّفها تفكيرا كبيرا ، نظرا للحب الفطري للوطن والذود عن حماه.

يذكر أنّ انضمامها لجبهة التحرير الوطني، كان انعطافة وتاريخ تحول في حياتها ، وتمّ ذلك عن طريق إحدى صديقاتها المناضلات في العام 1956، حيث تركت معهد الخياطة الذي كانت منخرطة للتعلّم فيه ، والتحقت بالثّورة التحريرية، في سنّ الفتوّة والقوّة ، كان يبلغ عمرها آنذاك عشرون ربيعاً.

نضالها الثوري مرّ على مراحل عديدة، فابتدأت بخدمة وإطعام بعض الثوّار، وذلك بتكليف من عمّها مصطفى بوحيرد ، ثمّ صارت فدائية ، مشاركة في أسرار الثورة والعمليات الفدائية وتخبئة الأسلحة، وكلّ ما يمكن أن يوكل لجندي موثوق في نواياه ونواياه الطيبة للوطن ، وقد كانت انطلاقتها من بيتهم ،ومن محيطها في العاصمة الجزائر[2] .توفيت جميلة بوحيرد بالجزائر العاصمة عن عمر يناهز ثمانية وسبعون عاما ، وذلك يوم 12 جوان 2015 .

02 ـ فكرة عامة عن مسرحية جميلة بوحيرد :

مسرحية جميلة بوحيرد للأديب الروائي السوري الراحل "عبد الوهاب حقي" ، كتبها في العام 1958 ، مشكّلة من أربع فصول ، مُثّلت في ست ولايات سورية، ويذكر الأديب عبد الوهاب حقي ، في مقدّمة كتاب المسرحية في النسخة الصادرة عن دار الهدى بالجزائر ، بأنّ هذه المسرحية يوم تمّ تمثيلها ، تبرّع بعائداتها لصالح جيش التحرير الجزائري ، ووصل استلام التبرع تمّ حفظ نسخة منه لدى وزارة المجاهدين وأخرى لدى المجاهدة " جميلة بوحيرد " شخصياً.

في مقدّمة كتاب المسرحية ، أشار مؤلفها كذلك بأن أول عرض لها كان في سورية وحضره رئيس الجمهورية السورية أمين حافظ ، وكان ذلك في مدينة (دير الزور)، التي تقع شمال شرق سورية ، دير الزور: يقصد بها بلد الأشجار ،كما أشار كاتب المسرحية إلى مدّة العرض والتي قدّرها بساعة كاملة على الرّكح[3] .

زمان المسرحية : إبان الثورة التحريرية في الجزائر ، أما المكان فهو دار أبي جميلة بوحيرد[4]

03 ـ تعريف بشخصيات المسرحية :

توزّعت المسرحية مكتوبة في حوالي خمس وتسعون صفحة، حملت خطابتها شخصيات محورية وأخرى ثانوية وهم :

جميلة بوحيرد ـ والدها ـ والدتها ـ شقيقها جميل (طفل) ، شقيقها مراد (شاب)،حسن (ضبط شاب) ، مصطفى بوحيرد (عم جميلة وهو ضباط كبير في السن وقد غير اسمه لعبد اللّه لدواعي أمنية) ، جميلة بوعزة (مناضلة)، روانار (الحاكم الفرنسي)، قيار (ضابط فرنسي) لابويس (ضابط فرنسي)، وغيرهم.

04 ـ الفنون وبعض الأجناس الأدبية الأخرى في المسرحية :

أ ـ الشعر :

في الأصل كانت المسرحيات غنائية ، ثمّ انفتحت على النمط النثري ، ولعلّ انتشار المسرحيات بالنمط الغنائي في البدء يعود إلى أن " الشعر الغنائي لا يصوّر أحاسيس الشاعر لا غير ، ولكنّه ينشّطها يجمّلها ، يعيد صياغتها من جديد ، ولهذا تكتسب المعاناة الغنائية توتّراً وتشبّعاً خاصّا ، ويبدو الشاعر صريع تلك العواطف والانفعالات التي يعبّر عنها شعرياً "[5] ، ونظرا لأهمية الخطاب الشعري ، فإنّنا كثيرا ما نجده متضمّنا في نصوص مسرحيات حتى وإن كانت نثرية .

تضمّنت المسرحية ،بعض المقاطع الشعرية الثورية ، والتي أدمجها الكاتب ، لإحداث حوارية بين الأجناس الأدبية ، وفي ذات الوقت ، إحداث استعراض يخرج المسرحية من الرتابة التي بنيت عليها فصولها الأربعة ، نجد نموذج لذلك ، هذه الأبيات التي ردّدتها جميلة بوحيرد ، بعد أن تمّ تعذيبها والتحقيق معها ومحاولات استنطاقها ، ثم إقرار المحكمة ، لإعادتها للسجن ، موقوفة لإعادة التحقيق معها ، فمضت أمام الضباط الفرنسيين والمحققين تنشد قائلة :

يا ظلام السجن خيم أننا نهوى الظلام
يا فرنسا لا تغالي وتقولي الفتح طابا
سوف تأتيك ليال تطردي طرد الكلابا[6]

ب ـ الفنون التشكيلية:

استضافت المسرحية بشكل خجول ، شيء ممّا في الفنون التشكيلية ويتّضح ذلك في بعض المواضع الواصفة للأمكنة وما تشملها ، نجد ذلك مثلا في بداية أول فصل للمسرحية ووصف أولي للديكور المؤثّث للمكان حيث يقول : " أثاث عادي ، بعض الصور لمناظر من الجزائر معلّقة على الجدران ، أصص من الورد على

الجانبين"[7]، الفنون التشكيلية وحضورها في الأجناس الأدبية المكتوبة ، تساعد على رسم ما يجري من أحداث في زمن النص المقروء ،" ...وتمثّل هذه اللوحات نصّاً فسيفسائيا مكثّفاً دلالياً ، تكشف حوار الذّات مع اللوحة ، وتحيل على طريقة أخرى للتعبير باعتبارها ، علامة منتجة لعوالم ورؤى مختلفة المستويات والأبعاد "[8]

ضمن هذا الوصف لم يغفل النص، يؤثّث المكان بلوحات تشكيلية ، وهي كما وصفها تحمل صوراً للجزائر ، ومهما كان محتوى تلك الصور ، فهي تحيل بشكل أو بآخر لالتفاتة لأهمية الفن التشكيلي ، وضرورة استدعائه لإثراء النصوص المسرحية،التي تستند بالدرجة الأولى على الحوارات الخارجية بي شخصيات المسرحية .

ج ـ الموسيقى:

حضرت الموسيقى بوصفها فنّاً ولغة ، وقد وُظّفت في النّص كنقطة توقّف لمواصلة سرد المسرحية ، نستشهد هنا بالموسيقى الحزينة التي رافقت طلقات الرصاص ، وذلك عقب المشهد الذي أصيب فيه جميل .

جميل : آي ...آي ..يدي آي يلعن أبو فرنسا ضربوني .

جميلة : (تصيح) مابك يا أخي أرني ...أريني أين أصابوك ؟ ، (ترى أثر بقعة دم على قميصه)(تصرخ) فعلاً مجرمون ...سننتقم لك ..لن يذهب دمك هدراً إنّها جريمة بشعة يرتكبها المجرمون المستعمرون يظهرون قوّتهم على الصّغار!

(على صوت الصراخ تفتح الأم عينها ، وتتمتم قائلة) ما به جميل ؟

(موسيقى تصويرية وطلقات رصاص)[9]

يضع الكاتب موسيقى بين قوسين ، ويصفه بالتصويرية ، كأنّ ذلك إشارة إلى أهمية الموسيقى في اكتمال المشهد التمثيلي ، فالموسيقى هنا تساهم في تركيب الصورة وصياغتها في ذهن المشاهد ، فالمشاهد رؤية وإصغاء واستيعاب ، وليس مشاهدة فحسب.

وقد تكرّر في المسرحية أكثر من الاستفادة من الموسيقى داخل النص المسرحي ، بل أن المشهد الأخير من المسرحية قبل إسدال الستار ، كان تكبيرات ، عقبتها الموسيقى والنشيد الوطني[10] .

د ـ الخطاب الصحفي :

تضمّنت المسرحية بعض مقاطع الأخبار الصحفية ، والتي تكسب الحدث شيئاً من الواقعية ، ونموذج ذلك ما قرأه حسن من الجريدة أمام رفاقه ، وهم منتبهون

مندهشون " إنّ القوات الفرنسية الفاشية قد توّجت هجمتها بعمل إجرامي جديد إذ قامت بتدمير قرية سيدي افني عن آخرها فاختلطت الأشلاء بالدماء والتراب .."[11].

هذا ما ورد في الخطاب الصحفي المكتوب ، أمّا الخطاب الصحفي المسموع والمتمثّل في الإذاعة ، فتجلّى في إذاعة صوت العرب التي تبثّ مباشرة من القاهرة أثناء الثورة التحريرية في الجزائر ، وهنا يورد البحث نموذج مسجّل ف نص المسرحية ، وقد كان أثناء جلوس جميلة بوحيرد ورفاقها الثوّار في الإصغاء لأحدى نشرات الأخبار والتي جاء فيها:

" هنا صوت العرب من القاهرة ، إليكم نشرة الأخبار يقرأها عليكم جلال معوض

أيّها المستمعات ، أيّها المستمعون العرب في كلّ مكان ترقّبوا أنباء هامّة في نشرتنا الإخبارية القادمة ، والآن أتابع قراءة نشرة الأخبار .

قرّرت مجموعة البلدان الأفروآسيوية أن يشتروا السّلاح ، ومعدّات ثقيلة إلى ثوّار الجزائر الأحرار .

لقد غارت طائرات حربية ، فرنسية لى مدرسة قرب العاصمة ، وألقت قنابلها ، لكن نيران المجاهدين جعلت الطائرة تفرّ دون أن تحقّق أهدافها ، إذن القنابل انفجرت قريبا من المدرسة .

" الجزائر" : جاء في سريّة لقيادة جيش التحرير الجزائري ، أنّ فرقة الصاعقة النسائية التي كانت متنكّرة باللباس الفرنسي ، هاجمت مدافع الفرنسيين وقتلت أزيد من 20 جنديا فرنسياً ، وأعطبت دبابتين ، كما أحرقت خمس سيارات عسكرية ، كما غنم المجاهدون كميّة من المعدّات "[12]

إنّ ادماج الخطاب الصحفي مكتوباً أو مرئيا أو مسموعا في نص المسرحية ، يكسر وتيرة المشهديّة ، بالإضافة ، إلى أنّ كاتب المسرحية بإمكانه أن يضمّن عدّة حيثيات عن الأحداث ، ويورد عدد من السياقات التاريخية والاجتماعية للحقبة الزمنية التي تجري فيها أحداث المسرحية ، يقوم بكلّ ذلك دون أن يسند الخطابات لشخصيات المسرحية المحورية منها أو الثانوية .

هـ ـ الرسائل :

الرسائل بوصفها نصا مكتوبا ، له طرائق صياغته وتحريره وأهدافه المغايرة تماما لنص المسرحية ، كان لها حضور في المسرحية ، من نماذج ذلك الرسالة التي وصلت لحسن عن طريق أحد الثوار ، " يفتح حسن الرسالة ، يقرأها: بلاغ رقم : قامت فرقة الصّاعقة بكامل المهمّات الملقاة على عاتقها بنجاح تام حيث قضت على عدد كبير من المظليين ، وكانت المجاهدة جميلة بوحيرد الدور الأمثل في نجاح هذه

الخطّة ، ربّما أنّها نفذت كامل الواجبات التي أمرت بتنفيذها لذلك تقرّر القيادة العامّة ما يلي :

01 ـ منح جميلة بوحيرد وسام الحرب المذهّب ، تقديراً لبطولاتها وشجاعتها .

02 ـ ترقيتها إلى رتبة ملازم .كما تنهي إلى علمكم ، أنّ المجاهدة جميلة بوعزّة ، قد وقعت في الأسر ، وقد أتلفت جميع الوثائق السريّة التي كانت بحوزتها، وسنعمل على إنقاذها .انتهى نص البلاغ "[13].

من شأن هكذا رسالة أو بلاغ يأتي ، ضمن نص مسرحية أن يحمل الكثير مما يقال في حوارات مطوّلة بين الشخصيات ، فكما نلاحظ أن هذا الحوار قدّم كرة عن المرحلة التاريخية الصعبة التي كانت تمرّ بها الثورة الجزائرية ، وكذا قدّم إشارات عن نضال المرأة الجزائرية وجسارتها في التحدّي ومواجهة العدو، وقد استغلّ الكاتب نص الرسالة ليقدّم فيه للمتلقي فكرة مكانة جميلة بوحيرد في الجيش ، وكيف تمّ ترقيتها لملازم ، وهذا نتج عن ثقتهم في وطنيتها وفي شجاعتها على حدّ السوا ، كما أشارت هذه الرسالة ، لما قامت به المجاهدة جميلة بوعزّة ، التي اعتقلت من قبل المستمر ، لكنّها قبل كلّ شيء أتلفت ما بحوزتها من وثائق من شأنها أن تسبّب إفشالا لخطّة الثوّار .

خاتمة:

من خلال قراءة نص مسرحية جميلة بوحيرد للكاتب السوري عبد الوهاب حقي ، يظهر الفنّ المسرح فنّا مستقلاّ بذاته ، له أسسه وأدواته ، لكن ذلك لم يمنعه من أن يجاور ويحاور فنون أخرى كالفنون التشكيلية والموسيقى ، ولم يمنعه أيضا من أن يستضيف فنون الكتابة الأخرى كالرسائل والتقارير والأخبار الصحفية .

إن حضور هذه الفنون كسرت رتابة الحوار الذي تنخرط فيه شخصيات المسرحية، ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الفنون كانت عبارة عن قناة توصيل لأفكار كثيرة ، لو حدث وأدرجها المؤلّف ضمن خطاب الشخصيات لجاء نص المسرحية طويلا مملا على المتلقي .

من خلال هذه المسرحية ، اتّضح كذلك مدى انتشار شخصية جميلة بوحيرد ، وحضورها الفعلي والرمزي في نصوص كثيرة ، كان على رأسها الشّعر ، لكن المسرح قدّم صورة المجاهدة إنسانة ومناضلة ، ومن خلالها كشخصية وطنية ثورية حمل النص صبغة التاريخ والتأريخ لحقبة زمنية مهمّة من تاريخ الجزائر الحديث.

مراجع المداخلة:

- إبراهيم السعافين و عبد اللّه خباص ومحمد جمعة : مناهج النص الأدبي ، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات ، جمهورية مصر ، القاهرة ط 01 ، 2010.
- عبد الوهاب حقي : جميلة بوحيرد (طود شامخ وتاريخ أمّة)، مقال بجريدة الأحرار ، عدد 2410 ، ليوم 01/ 02 / 2006 .
- مجموعة مؤلفين : المدخل إلى علم الأدب ، ترجمة : أحمد علي الهمذاني ،دار المسيرة للنشر والطباعة ، عمان ، الأردن ، ط01 ، 2005.
- عبد الوهاب حقي : مسرحية جميلة بوحيرد ، دار الهدى ، الجزائر، 2009.
- مازوني فريزة : انفتاح الجنس الأدبي وتحولات الكتابة عند إبراهيم سعدي ، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو.

الهوامش:

[1] . إبراهيم السعافين و عبد الله خباص ومحمد جمعة : مناهج النص الأدبي ، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات ، جمهورية مصر ، القاهرة ط 01 ، 2010 ، ص 25

[2] . عبد الوهاب حقي : جميلة بوحيرد (طود شامخ وتاريخ أمّة)، مقال بجريدة الأحرار ، عدد 2410 ، ليوم 01/ 02 / 2006 .

[3] . عبد الوهاب حقي : مسرحية جميلة بوحيرد ، دار الهدى ، الجزائر 2009 ، ص 03

[4] . المصدر نفسه : ص 03 .

[5] . مجموعة مؤلفين : المدخل إلى علم الأدب ، ترجمة : أحمد علي الهمذاني ،دار المسيرة للنشر والطباعة ، عمان ، الأردن ، ط01، 2005 ، ص216 .

[6] . مسرحية جميلة بوحيرد : ص 79 .

[7] . مسرحية جميلة بوحيرد : ص 06 .

[8] . مازوني فريزة : انفتاح الجنس الأدبي وتحولات الكتابة عند إبراهيم سعدي ، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو ، ص 149

[9] . مسرحية جميلة بوحيرد : ص 17.

[10] . المصدر نفسه : ص 95 .

[11] . المصدر نفسه : ص 33 .

[12] . مسرحية جميلة بوحيرد : ص 48 .

[13] . المصدر السابق : ص 49 .